ـ في غابات افريقيا ينصحون مَنْ يهاجمه نمرٌ أو أسدٌ أن يقف ساكناً مستكيناً. فيأخذ بالنصيحة ويغمض عينيه وينغمر في شيء آخر. وأنتِ هنا أمامك وحشٌ من نوع آخر. أغمضي عينيك وتذكري اللحظات الجميلة في حياتنا.. تذكري لقاءاتنا، مواعيدنا.. تذكري العلاقة الحميمة والصداقة النادرة وحبَّنا الكبير. تذكري أهلنا وأحبَّتنا والأصدقاء الرائعين.

قالت ودموعها تنهمر:

ـ وهل للحجر أن تنبض فيه الحياةُ؟ أنا في هذه الساعة لست أكثر من قطعة حجر.

ـ وهل يخاف الحجر؟ أرأيتِ؟ أنت تجعلين الحياةَ تسري في الحجر، وهذا فألٌ حسن.

يضحك فتمسح دموعها وتضحك معه ويتبادلان النظرات.

مطبّة هوائيّة عنيفة تحتوي الطائرة وتهبط بها إلى علوّ منخفض، فتلمسها الأمواجُ الهائجة، التي ارتفعتْ إلى علوّ شاهق، وترشّ نوافذها بالرذاذ.

تصرخ وتتشبث به بحركة لاإرادية خائفة.

يطوِّق كتفيها ويقول بحنان:

ـ هل ركبتِ في طفولتك دواليبَ الهواء؟ كنا نركبها كثيراً، ولاسيما في الأعياد. تخيلي نفسَكِ الآن وأنتِ تركبين دولاب هواء، يرتفع بك ويهبط. ما شعرتُ به أنا الآن هو الشعور ذاته. فلتفكري به. افعلي ما أقول لكِ.

تُطرق رأسها بيأس وتذهب بأفكارها بعيداً.. تسترخي واضعةً رأسها فوق كتفه.. تغمض عينيها وتنغمر بالطوفان.

بغداد

قضبان الروح

أحمد م. حميده

هو العين والبصر... عكّاز النهار، ومُؤْنِس الليل.. معلّقٌ بالتلافيف والأصابع.. وديعة دائماً بيده.. مستسلمة باطمئنان جميل..

مبصرٌ هو وصغير.. يلهو هناك بين أبدان البشر.. يذهب ويجيء. يجوس الممرَّ وسيقانَ الواقفين، ركابِ قطار الضواحي البطيء. ينظر إليها، إلى جوار الباب قاعدةً، صامتةً تُرْهف السمعَ بقلق. لا بد للأطفال أن يمرحوا. يلعب ويعود، على أطراف الأصابع. يدنو من الأذن، يغزو الدماغ، ينفذ إلى القلب لتنبسط أساريره.

يتناءى صوتُه.. تدرك أنّه هَرْوَل إلى العربة الأخرى حيث أصواتُ الأطفال المتجولين بالأمشاط وعلب الكبريت والبسكويت. أصدقاء العام الفائت، تعارفوا حين كان مثلهم يسرح بإبر الخياطة قبل موت أبيه الأعمى، قبل أن يكون عيناً لأمه ومرشدها.

كان يحسّ ـ وأقرانُهُ يتناثرون بالعربات البعيدة ـ بشعاع استشعارها السمعي الرهيف يسعى إليه، يحيط به، يغمره. فلا يتباعد.. بل ينفلت من بين الركاب، ويتقارب.. ببطء الحذِر. يدنو من البدن المقرفص بجانب الباب المفتوح. تنبسط قسماتُ الوجه المُنْصِتِ..

ـ إنْتَ جيتْ يا حسن؟

يقرفص قدّامها.. تشعر بأنفاسه تتردد... يبتهج ويعدو.

والركاب المجهَدُون، الذين استحلب قواهم النهارُ المنصرمُ، يتناقصون. يتجشّأهم القطارُ في المحطات الفائتة، ويشفط آخرين من فوق الأرصفة. يتصارعون. يتلاصقون..

ركاب آخر الخط مألوفو الوجوه، حاملو القطار على الكواهل يلمحونها تقريباً في كل يوم.. لكنهم لم يكونوا يعرفون من أية محطة تركب هي وطفلُها المبصر، ولا في أية محطة تنزل.. موجودةٌ هي مثل كل الموجودات التي تصادف أعينَهم يومياً أثناء النهار، بالعربة الأولى، أو الثانية، أو العرباتِ الأخرى. كأنهما لا يغادران القطار أبداً.. ثوبها القديم باهتُ السواد فضفاضٌ فوق جسدها المقرفص كمن يتأهّب للوثب. سكونُ قسمات الوجه القانع الملفوف بطرحةٍ بيضاءَ كالحةٍ حتى الاصفرار.. توجِّه الأذن نحو الداخل.. تتحسس قروشاً يُسْقطها البعضُ في حجْرها. أذنها كجهاز إرسالٍ واستقبالٍ يبثّ إشعاعاً لا يكل، يتواتر، يراوغ الصخب، وينفذ حيث طفلُها اللاهي.. يكهربه حبل المودة المجهول، فينصت أحياناً فربما تدعوه، فيهرع إلى جوارها.. تمسّد رأسه المتلهفَ للعودة إلى اللعب.

ـ اقعد يا حسن.. بيكفي لعب يا حسن.

ـ طيب... قعدنا..

تمدّ إصبعين، تقرص فخده الرفيع.

ـ عيب يا حسن.

يتأوه شبهَ باكٍ، تقول:

ـ النهار طويل قدامك...

ـ النهار قرَّب يروح يامّه..

ـ هي الساعة كام دِ الوقت؟

ـ الشمس قربت من البحر..

ـ يعني لسّهْ بدري؟ قلْ لي شايف ايه..؟

ـ اللي كل يوم بشوفه..

ـ شايف ايه يعني..؟

ـ حاجات عاديّة..

ـ يا واد، اقعدْ.. نَوِّرْني..

ـ أَنوِّرِكْ بأيه..؟

ـ كلّ ما تقول أتنوّر.. أعرف..

ـ أيه الفايدة؟ أنا أهو مفتّح ولا أعرف حاجة..

ـ يا عفريت..

رويداً، ينسلّ الزهقُ من صوته.

ـ صلّحوا المحطات، وبنوا أسوار حوالين القضبان...

ـ يا سلام.. والله كويس... أسوار عالية يا حسن؟

ـ نُصّ نصّ.. ودهنوا القطارات.. جدّدوها..

ـ والقطار اللي احنا فيه، غيّروه..؟

ـ يتغير ازاي واحنا قاعدين جوّاه..!؟

ـ اقصد دهنوه من برّه.. جددوه..؟

ـ أهو.. زي ما هو...

ـ والبيوت اللي كانوا يبينوها ورا الجدران؟

ـ البيوت كبرتْ خالص.. كبرتْ قوي يامّه...

كان الاندهاش قد أزاح الضجر من الصوت فاستكان الجسدُ الصغيرُ إلى الجوار، يقول:

ـ هي الأطباق دي ليه يامّه؟

ـ أطباق أيه...؟

ـ أطباق فوق السطوح. كبيرة ومدوّرة وفاضية.. ليه؟

ـ هو أنا بشوف يا حسن؟ لو بشوف أحتاج لعيّل عبيط زيّك؟!

ـ وكلها متوجهة الناحية دي..

وقد أشار بذراعه نحو الوراء.. قالت..

ـ ناحيةْ ايه..؟

ـ ناحية الملاحة كده..

ـ تقصد ناحية الغرب..

ـ أهي ناحية وخلاص..

ـ كلها يا حسن..؟

ـ كلها يامّه..

ـ وفاضية..؟

ـ خالص..

عاوده الضجرُ.. تَمْلَمَلَ.. فرصة هي للزوغان، قال:

ـ أروح اسأل وآجي أقول لك..

ـ بتتريّق عليّ يا حسن؟ طيب تعال!..

امتدتْ يدُها لتمسك به. إلا أنه وثب قائماً هازّاً وسطَه، وهو يضحك:

ـ لو شاطره امسكيني..

فردتْ ذراعَها تريد إمساكه. لكنّ ضربات يدها للهواء كانت عشوائية.أحسّ بالضيق فاقترب لتمسكه. راوغها. ضحك وابتعد ثم اقترب.. وتناءى..

ـ بلاش تروح بعيدْ يا حسن..

كان ردّه يجيء من بعيد:

ـ متخافيش.. أنا هنا.. أهو..

يتباعد الصوتُ رويداً.. لزمت الصمتَ والإنصات. لم تستطع الإمساك به يوماً ليظلّ بالجوار.. يحكي ما يراه وما تحبّ أن تسمعه أثناءَ الليل أو النهار.. يتقلقل بدنُه، يتحرك بداب.. يتوق لمعاودة اللهو.. تنتابه الدهشة، يستقر قائلاً:

ـ ياه يامه الرصيف مليان طُشُوتْ...

تهدِّئ من دهشته التي لم ينجح في نقلها إلى رأسها. تقول:

ـ دول الفلاّحين يا حسن جايين من الأرياف بالتموين..

ـ التموين..؟

ـ الجبن والخضار يبيعوه عندنا في المدينة..

ـ آه.. عرفتي منين انّهم فلاحين؟

ـ من صوتهم وريحتهم يا عبيط..

حين تتكاثر أسئلتُهُ، يغزوها السكونُ. يدرك بأنها قد اكتفتْ، فوجهُها انبسطتْ أساريرُه، وتهدّلَتْ شفتها السفلى، وتثاقل رأسها وترنح لتبدأ الدخول في نوبة غفوة. ينسلّ هو بحذر. يسمع صوتها الكسول آتياً من عمق الغفوة:

ـ لا تبعد يا حسن..

ـ طيب.. طيب..

وغفتْ، كأنْ ليس بالدنيا ضجيجٌ ولا بشر..

ذاب هناك يبحث عن أقرانه، أطفالِ البيع الذين تلاشَوْا وسطَ الزحام في لحظة الغفوة.

غفوةٌ داهمت الدماغَ، فارتكَنَ على ظهر الكرسيّ.. غفوةٌ امتدتْ دقائقَ أو ثوانيَ. أيقظها منها صوتُ ارتطام بجدار القلب فانقبض.. صوتٌ مبهم سرعان ما سكن، أعقبتْه صرخةٌ واحدةٌ، أسيانة ومفزعةٌ، ومضت بالتلافيف المرتخية بالرأس المركون، فاعتدل متجمِّد الملامح مصلوباً فوق الرقبة، منصتاً..

خرج صوتها متوتراً وخافتاً:

ـ ولد يا حسن..

لو كان قريباً لبلغ الصوتُ أذنَه وجاء مهرولاً.. ولو كان

بعيداً، لسمع الصوت بحواسّه المغمورة بإشعاعها الذي يتبعه، ولجاء فوراً يحمله التذمُّرُ القلق. يحسّ. يجيء. يخترق مدركاً أنّ القطار قد بلغ منتهى قضبانه، فيأخذ يدها في كفه.. فيتطامن القلب، وتخضع الكفّ.

أعادت النداء بصوت خرج عن الرأس:

ـ واد يا حسن... حسن...

والصخب يتعالى ويتفاقم.. صخب يوميّ لا ينبئ بوقوع شيء غير مألوف. الركاب الذين بدأوا يتحايلون على الصبر، يتفوهون بكلام عن التأخر والمرتبات، والغلاء والزوجات، والزوغان واللصوص، وعن معارك البعض مع المحصّلين السادرين في قطع التذاكر، على الرغم من توقُّفِ القطار. ونداؤها بدأ يملأ محيط مكانها:

ـ يا حسن... يا حسن... يا حســ... ن..

ربما بعربة أخرى هو، يلهو. فكثيرةٌ هي العربات الخلفية..

ـ حسن...

رفعتِ الرأسَ نحو مصدر الأصوات المتشابكة بتكاثر عنيد. واستعادتْ بكلّ حواسّها تلك الصرخةَ الوامضةَ. نهضت ممددةَ الذراعين، تتحسّس أبدانَ الركّاب وأعمدة الممر وظهورَ الكراسي..

سألتْ أحد الذين صادفوا اصطدام جسدها المهرول:

ـ هو حصل ايه يا خويا..؟

ـ أنا عارف؟.. انزلي شوفي.. أهي عيشة تزهق..

انقباض القلب يدفع البدن على التقدم نحو العربة الثانية..

ـ ولد يا حسن..

رويداً يعلو صوت النداء..

فالعربة الثالثة

ـ ما حدش شاف حسن..؟.. يا حسن..

تجسّ أبداناً متناهيةً في صمتها العجيب.. كالنائمين كانوا والصوت يعلو من القلب:

ـ حسن.. يا بني.. رد.. يا حسااان..

خيل إليها أنّ صوتها المنادي الأسيان سوف يشحن الجو كله، يصعد لعنان السماء، يطغى على صوت الصخب والبشر، فيبحث معها الجميعُ عن حسن..

.. أيكون ذهب لدورة المياه..؟

لكنّ حسن دوماً يرسل بوله عبر الباب بجوارها.. فهل تبوّل عبر باب آخر..؟

أم تراه ذَهَبَ لشراء ساندوتش؟

لكنّه مفلس، وطعامه مخبوء دائماً معها..

العم الذي ذهبا إليه في «العصافرة» لم يعد يمنحهما مليماً.. بائع الخضر والفواكه قطع عنهما المعونة الشهرية. وها هما يتجولان بالقطار منذ موت زوجها الأعمى، الذي كان يَعُولُهما من قراءة القرآن في المقابر، ثم انقطع لمرضه ومشاق المشوار من كشك الجبل إلى مقابر عمود السواري.

القطار يقطع المسافة بين الاسكندرية والعصافرة. الجلوس على أرض الممر في صمت الخجل، جعل المحصّلين يتركونها وطفلها.. لكنّها ذاتَ يوم وجَدتْ في حجرها قروشاً، ألقَتْها الأيدي المُحسِنة.. قروشاً أخذتْ نصفَها أختُ زوجها التي تقطن الكشك المجاور؛ فهي تنام وابنها، وعليها أن تدفع ثمن الكشك والإقامة..

ـ حسااان.. يا بني...

أمسك بذراعها أحدُ الركاب ليجتاز بها الممرّ الفاصل بين الباب والرصيف. قالت:

ـ ما شفتش حسن يا خويا..؟

ـ حسن مين يا ست؟

ـ حسن ابني.. كان هنا دِ الوقت..

هبط بها إلى الرصيف وهو يقول متعجلاً:

ـ شكله ايه حسن دَهْ يا ست..؟

ـ ولد.. عيِّل صغيّر..

ـ العيال كتير يا ست..

ـ ده كان معايا من شوية..

ـ لابس ايه حسن ابنك ده..؟

ـ لابس ايه..؟ لابس هدومه.. بيجامة..

ـ شكلها ايه البيجامة دي...؟

بالدهشة المريبة والغرابة، استخلصتْ ذراعها من يده.. لزمت الصمتَ.. لعلّ الرجل لم يلحظ عماها.. لكنه تطوّع وأنزلها.. سألتْ:

ـ بيجامة.. هو فيه عيال كتير لابسين بيجامات...؟

لم يجب.. أيقنتْ أنه انصرف لحاله.. تساءلتْ:

ـ هو الولد راح فين.. يا ربي.. يا حسااان... يا بنيّ.

كان هناك بالطرف القصيّ من الرصيف رجالٌ يحدوهم الصمتُ والفزع، ينظرون إلى أسفل.. يقابلهم صفٌّ آخر بطرف الرصيف المقابل. صفّان تفصل بينهما قضبانٌ لامعةٌ تناثرتْ على فلنكاتها قطعٌ من لحم مهروس (...).

مصر